رجال الأعراف وأصحابها

محمد باقر شعيتو[١]

مقدّمة:

ذكر القرآن الكريم في إحدى سوره المباركة واحداً من مواقف يوم القيامة؛ مكاناً يدُعى الأعراف، يشرف على أهوال النار ومعذَّبيها، وأحوال الجنّة ومنعَّميها، يجتمع فيه نفر من الناس، لم تبن عاقبتهم، ولم تتّضح مصائرهم، مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، يتطلّعون بعين ملؤها الخوف والرجاء إلى من يمدّ لهم يد الخلاص والنجاة، إلى رجالٍ حباهم الله -تعالى- بكرامة من عنده؛ لا يقولون إلا الصواب ولا يفعلون إلا الحقّ، قال -تعالى-: ﴿... **وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[٢].

واكتفى القرآن الكريم بذِكْر هذا الموقف في هذه السورة التي سُمّيت باسمه، وتعدّدت الأقوال في تفسير حقيقة الأعراف وماهيّتا، فمنهم من ذهب إلى أنّها مستقرّ دائم لفئة من الناس تساوت سيئات أعمالهم مع حسناتها، ومنهم من اعتبرها ممرّاً؛ كالصراط يجتازه أصحابه إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار.

١) طالب في مرحلة الإجازة في الفقه والمعارف الإسلاميّة، جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالميّة.
٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٦و ٤٧.

وكذلك اختلف العلماء والمفسّرون في تحديد من هم رجال الأعراف وأصحابه؛ فتعدّدت اتّجاهاتهم بتعدّد مستند كلّ واحد منهم، ولكلّ مشربه في ذلك.

ولذا، كان من الضروري أن نتساءل عن الأعراف وما المراد بها، وهل حقّاً هي مكان ثالث مغاير للجنّة والنار؟ أم هي موقف تجتازه ثلّة خاصّة من أهل المحشر؟ ومن هم هؤلاء الرجال الذين ذكرهم القرآن الكريم وما هو دورهم؟

هذه الأسئلة وغيرها نحاول الإجابة عليها في هذا البحث المختصر، مسلّطين الضوء على أهمّ الآراء والتفاسير في هذا المجال، على أنْ نستقصي الروايات الشريفة التي جاءت لتكشف مكنون الآيات الكريمة التي ذكرت هذا الموقف، ولتبيّن ما خفي على الناس من أمر ربّهم -سبحانه-

أولاً: مفهوم الأعراف:

الأعراف جمع عرف، والعرْفُ في اللغة هو «**الرمل المرتفع**»[1]، ولهذا يُطلَق على شعر ناصية الفرس؛ لأنّ منبته مكان مرتفع من بدنه، فيقال «عرف الفرس»، ويطلق على «**كلّ مرتفع من الأرض؛ وذلك لأنّه بسبب ارتفاعه يصير أعرف ممّا انخفض منه**»[2].

أمّا أصل المكان الذي يتّصل به هذا المرتفع، فقد بيّنه الله -تعالى- بقوله: ﴿**وبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ...**﴾[3]؛ أي السور الفاصل الذي يُضرب به بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة، وقد أشار -تعالى- إلى ذلك السور بقوله: ﴿**لهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾[4]؛ حيث يتمّ التمايز الكامل بين طائفة المعذَّبين وطائفة المرحومين. وعليه، تكون الأعراف «**أعالي (هذا)**

١) الجوهري، إسماعيل بن حماد: **تاج اللغة وصحاح العربية**، تحـ. أحمد عبد الغفور العطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٤، ص١٤٠١.

٢) الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر: **التفسير الكبير**، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ، ج ١٤، ص ٨٧

٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٦

٤) سورة الحديد، الآية: ١٣.

الحجاب الذي بين الجنّة والنار، وهو المحلّ المشرف على الفريقين؛ أهل الجنّة وأهل النار جميعاً»[١].

ومن هنا، يمكننا فهم الأقوال المختلفة في تفسير الأعراف، تارة بالسور[٢] وأخرى بالجبل[٣]، على أنّها ترجع في حقيقتها -بعد التدقيق فيها- إلى مصبّ واحدٍ، وهو ما ارتفع من الحجاب الفاصل بين الجنّة والنار.

ثانياً: أوصاف أهل الأعراف:

عرض القرآن الكريم في سياق حديثه عن مجريات أحداث الأعراف مجموعة من صفات رجاله؛ وهي:

١- الرجولة:

عند العودة إلى القرآن الكريم، يمكننا تصنيف الآيات التي استعملت لفظ «**رجال**» إلى ثلاث طوائف:

أ. **الطائفة الأولى:** تتحدّث عن الرجولة أو «**الرجال**» في مقابل «**النساء**» فقط، وذلك في ثلاثة موارد:

- **﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾**[٤].
- **﴿... وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**[٥].
- **﴿... وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ(...)﴾**[٦].

ب. **الطائفة الثانية:** تعبّر بلفظ «**رجال**» لا تشير إلى البُعد الذكوري، بل إلى أفراد

١) الطباطبائي، محمد حسين: **الميزان في تفسير القرآن**، ط٥، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٣هـ، ج٨، ص١٢١

٢) راجع: الصدوق، محمد بن بابويه: **الاعتقادات في الإمامية**، تحـ. عصام عبد السيد، ط٢، دار المفيد، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٧٠.

٣) راجع: المفيد، محمد بن محمد النعمان: **تصحيح اعتقادات الإمامية**، تحـ. حسين دركاهي، ط٢، دار المفيد، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص١٠٦.

٤) سورة النساء، الآية: ١.

٥) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

٦) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

بلغوا من الدرجة الإنسانية مقامات عالية، وهو بُعدٌ قيميّ ومعنويّ مشترك بين الذكر والأنثى:

- **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ إلاَّ رجَالاً نُّوحي إلَيْهم﴾**[1].
- **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾**[2].
- **﴿... فيه رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾**[3].
- **﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾**[4].
- **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾**[5].
- **﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾**[6].

ج. **الطائفة الثالثة**: يُذمّ فيها صنف من الرجال نتيجة اقترافهم بعض الأعمال:

- **﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقاً﴾**[7].
- **﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾**[8].

فالتعبير بـ كلمة «رجال» في هذه الآيات: «**وخاصة بالتنكير يدلّ بحسب عرف اللغة على اعتناء تام بشأن الأفراد المقصودين باللفظ نظراً إلى دلالة الرجل بحسب العادة على الإنسان القوي في تعقّله وإرادته الشديد في قوامه (...) [فهم] أفراد تامّون في إنسانيتهم لا محالة، وإن فرض أن فيهم أفراداً من النساء كان من [باب] التغليب**»[9].

---

١) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.
٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.
٤) سورة النور، الآية: ٣٧.
٥) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.
٦) سورة ص، الآية: ٦٢.
٧) سورة الجن، الآية: ٦.
٨) سورة الأعراف، الآية: ٤٧.
٩) الطباطبائي، م. س، ج٨، ص١٢٢-١٢٣.

بعد هذا البيان، لا يبقى معنًى لكثير من الأقوال، وعلى رأسها كون هؤلاء (أي الموصوفين بالرجولة) من المستضعفين؛ لأنّ المستضعفين لا مزيّة (أخروية أو دنيوية) توجب وصفهم بالرجال، كما إنه لا مزية لرجالهم -وفيهم الأطفال والنساء - على غير الرجال حتى يذكر الرجال من باب التغليب أو يخصّصوا بالذِكر دون سواهم. ولو قصد التعبير عنهم لكان -تعالى- عبّر عنهم بألفاظ أخرى كما جرت عادة القرآن الكريم في هذه الموارد، مثل: قوم أو طائفة أو أناس[١].

والكلام نفسه ينطبق على باقي الأقوال ممّا لا مرجّح لدخوله في إحدى الطائفتين الأخريين (أي أصحاب النار وأصحاب الجنة)؛ إذ لا يصحّ وصف أولاد الكفار أو أولاد الزنا مثلاً بأنّهم رجال.

أمّا القول بأنّ هؤلاء الموصوفين بالرجولة ملائكة فإنّه لا يصحّ البتّة؛ لأنّ الملائكة لا تنطبق عليهم الأوصاف الملازمة للذكورة أو الأنوثة، فهذه الأعراض (أي الذكورة والأنوثة وأمثالهما) من لوازم الوجود المادّي المجهّز للتناسل، وأين الملائكة من ذلك، فحتى لو سلّمنا بأنّ الملائكة تتشكّل في ذلك الموقف بأشكال الرجال[٢]، فإنّ ذلك لا يغيّر من ماهيّتهم شيئاً، وبالتالي فإنّه لا يسوّغ تسميتهم «**رجالاً**» كما هو معلوم.

٢- الإشراف على أهل المحشر:

يظهر من الآيات الشريفة -محلّ البحث- التي تحدّثت عن رجال الأعراف، أنّ دورهم هو تمييزهم (بالعلامات الخاصّة) لأفراد أصحاب الفريقين الباقيين، فقد ذكرت الآية الشريفة أنّ هؤلاء الرجال: ﴿**يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ**﴾، والسيماء لغة من فعل سوم؛ وهو «**العرض وإبراز ما في القلب أو الباطن طبيعيّاً أو إراديّاً في أمر مادّيّ أو معنويّ**»[٣]. ولا شكّ في أنّ ما يُكشف لرجال الأعراف من حال أهل

١) راجع: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س.، الجزء الثامن، ص١٢٣

٢) نقل هذا القول عن أبي مجلز غير واحد من المفسّرين؛ انظر الرازي، م. س، ج١٤، ص٨٧؛ وانظر القرطبي، أبوعبدالله محمد بن أحمد الأنصاري: **الجامع لأحكام القرآن**، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٥م، ج٧، ص٢١٢.

٣) مصطفوي، حسن: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ط١، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ١٤١٧هـ، ج٥، ص٢٧٧.

الجنّة والنار ليس من العلامات العامّة[1] التي لا تخفى على أحد من أهل المحشر من اسوداد الوجوه أو ابيضاضها؛ لأنّه لا يبقى معنى لوصفهم بنوع كهذا من المعرفة إن لم تكن ميزة خاصّة بهم دون غيرهم.

وعليه، يتعيّن كون ما يظهر من أصحاب الدارين هو: «**صفات الباطن وتجلّي مراتب القلب من النور والظلمة في الوجوه طبيعيّاً**»[2]، وهي «**أمور وراء الكفر والإيمان في الجملة**»[3]؛ بحيث لا يميّزها إلا رجال الأعراف وحدهم.

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة في محلّ بحثنا: ﴿**ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون**﴾[4]، فهم قد ميّزوا خصوصيّات هؤلاء الرجال النفسيّة والسلوكيّة، وهذا لا يتأتّى إلا لمن كان مطّلعاً على بواطن هؤلاء الأشخاص وسريرتهم، وهذه المعرفة ليست كالمعرفة الحاصلة بين الأخلّاء أو بين التابعين والمتبوعين[5] [6].

ويبقى سؤال عن معرفة رجال الأعراف للعلامات الخاصّة هل هي سابقة على الحشر أم إنّها حادثة في ذلك الموقف؟

ظاهر الآيات لا يساعدنا في الإجابة عن هذا السؤال، لذا لا بدّ من العودة إلى

---

١) العلامات العامة للناس في المحشر كثيرة، وقد ذكرها القرآن الكريم في عدة مواضع منها: ﴿**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ...**﴾ (سورة الرحمن، الآية: ٤١)؛ ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ...**﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٠٦)؛ ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ**﴾ (سورة القيامة، الآية: ٢٢)؛ ﴿**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ**﴾ (سورة القيامة، الآية:٢٤)؛ ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ**﴾ (سورة عبس، الآية: ٣٨)؛ ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ**﴾ (سورة الغاشية، الآية: ٨)؛ ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ...**﴾ (سورة الحديد، الآية: ١٢).

ومن البديهي أنّ هذه العلامات ظاهرة للجميع حتى للمنافقين: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا...**﴾ (سورة الحديد، الآية: ١٣).

٢) مصطفوي، م. س، ج٥، ص٢٧٧.

٣) الطبابائي، م. س، ج٨، ص١٢٤.

٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٨.

٥) انظر مثلاً قوله – تعالى –: ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ... فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ**﴾ (سورة الصافات، الآيات: ٥١-٥٥)، وقوله – تعالى –: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ (سورة البقرة، الآيتان: ١٦٧و١٦٨)

٦) راجع الطباطبائي، م. س، ج٨، ص١٢٤

القوانين العامّة ليوم القيامة -ولو بشكل سريع يناسب هذا المختصر- وتطبيقها على هذه الجزئيّات المذكورة في الآيات للوصول إلى جواب شافٍ.

وما يجب أن يُعلم أنّ كلّ موقف من مواقف القيامة -من الحساب والميزان والصراط وغيرها وشهادة الأرض، والجوارح، والجلود، والملائكة، والذين قُتلوا في سبيل الله، والأنبياء وغيرهم[١]، وكون الميزان هو الحقّ[٢]، وظهور بواطن الأعمال وحقائقها[٣]- إنّما هو في سياق إقامة الحجج الإلهيّة على العبد. والأعراف ليست بدعاً من هذه المواقف. وبالتالي تصبح إقامة الحجّة في هذا الموقف على عاتق من عرف الناس بسيمائهم الخاصّة، ورأوا أعمالهم في الدنيا، حتّى يتسنّى لهم إدخال كلّ امرئ إلى دار مقامه، وإلا لما كانت حجّتهم بالغة، ولأصبحت تحكّماً محضاً، ولا يقام لها وزن في المحكمة الإلهيّة.

بناءً على ذلك، لا بدّ من أن يكون رجال الأعراف في عداد شهداء الأعمال الذين ذكرهم القرآن الكريم في موارد عديدة[٤].

---

١) الآيات في القرآن الكريم التي تتناول الشهادة على أعمال العباد كثيرة، منها: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة يس، الآية: ٦٥)؛ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ (سورة الزلزلة، الآيتان: ٤و٥)؛ ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة فصلت، الآية: ٢١)؛ ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ (سورة النحل، الآية: ٨٩)؛ ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة الزمر، الآية: ٦٩)؛ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (سورة ق، الآية: ٢١).

٢) إشارة إلى قوله – تعالى –: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ٨)

٣) إشارة إلى قوله – تعالى –: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (سورة ق، الآية: ٢٢)؛ ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (سورة السجدة، الآية: ١٢)؛ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (...) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (سورة يونس، الآيتان: ٢٨و٣٠).

٤) راجع: قوله -تعالى-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٤٣)؛ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (سورة النحل، الآية: ٨٤)؛ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (سورة النساء، الآية: ٤١)؛ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (سورة الحج، الآية: ٧٨)

ومن الواجب أن يكون هذا الشهيد ذا عصمة إلهيّة يمتنع عليه الكذب والجزاف، وأن يكون عالماً بحقائق الأعمال التي يشهد عليها لا بظاهر صورها وهيئاتها المحسوسة؛ بل بحقيقة ما انعقدت عليه القلوب، وأن يستوي عنده الحاضر والغائب من الناس[1].

٣- التكلّم مع الفريقين:

ذكرت الآيات الكريمات -محلّ البحث- الحوادث التي جرت بين رجال الأعراف وبين أصحاب الجنّة والنار، فكانوا في كلامهم مسترسلين لا يحجزهم حاجز ولا يمنعهم مانع، وليس هذا الأمر -أي الكلام- مأذوناً به لأيّ كان يوم القيامة؛ إذ يقول -تعالى-: ﴿**يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا**﴾[3]، على أنّ كلامهم لم يكن مجرّد شهادة على أحوال الفريقين، بل ترتّب عليه أمر أصحاب الجنّة بدخولها وتأمينهم من الخوف والحزن؛ كما هو ظاهر سياق الآيات، وقد قال -تعالى- بحقّ الشهداء: ﴿**وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[4]؛ «**حيث يفيد أنّ الملاك في الشفاعة هو الشهادة، فالشهداء هم الشفعاء المالكون للشفاعة**»[5].

٤- أصحاب مقامٍ وجوديّ عالٍ:

إنّ هؤلاء «**الرجال**» هم في عداد شهداء الأعمال يوم القيامة، ووقوفهم على الأعراف لعلوّ مكانتهم وهيمنتهم على الفريقين يوم القيامة، وقد يظنّ الإنسان لأول وهلة أن الارتفاع على الأعراف ارتفاع على تلة من الرمال أو غيرها من مواد

١) راجع: الطباطبائي، م.س، ج١٢، ص٣٢٢-٣٢٣

٢) سورة هود، الآية: ١٠٥.

٣) سورة النبأ، الآية: ٣٨.

٤) سورة الزخرف، الآية:٨٦.

٥) الطباطبائي، م. س، ج١، ص١٧٩.

أرضنا، وأنّى يكون ذلك وقد قال -تعالى- في وصف الأرض يومئذ: ﴿**لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا**﴾[١]، بل إنما هو مقامهم المرتفع عن أهل المحشر[٢]، فهم غير محضرين كسائر أهل الجمع ولا هم داخلون في زمرة المعرَّضين لأهوال ذلك اليوم من صعقة النفخ وزلزلة الساعة وغيرها من الأهوال ممّا يسكر الناس ويجعل الولدان شيباً؛ ولذلك قال الله سبحانه بحقّ هذه الطائفة: ﴿**فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾[٣]؛ وما ذلك إلا لاستحالة غوايتهم، فقد حكى -تعالى- عن لسان إبليس قوله: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[٤]، واستثناهم من صعقة النفخة الأولى -نفخة الإماتة- ، فقال -جلّ وعلا-: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ**﴾[٥] [٦]. وبذلك يظهر أنّ رجال الأعراف «**جمع من عباد الله المخلصين من غير الملائكة، هم أرفع مقاماً وأعلى منزلةً من سائر أهل الجمع، يعرفون عامة الفريقين، لهم أن يتكلّموا بالحقّ يوم القيامة ولهم أن يشهدوا، ولهم أن يشفعوا، ولهم أن يأمروا ويقضوا**»[٧].

رابعاً: من هم رجال الأعراف؟

ذكر المفسّرون نحواً من أربعة عشر قولاً في هوية رجال الأعراف[٨]، يمكن جمعها تحت أربعة عناوين رئيسة، وهي:

- أهل الكرامة والمنزلة الرفيعة.

١) سورة طه، الآية: ١٠٧.

٢) راجع: الطباطبائي، محمد حسين: **كتاب الإنسان**، ط٢، دار الأضواء، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص١٧٦

٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٧و١٢٨..

٤) سورة الحجر، الآيتان: ٣٩و٤٠.

٥) سورة النمل، الآية: ٧٨.

٦) راجع: الطباطبائي، **كتاب الإنسان**، م. س، ص٩١-٩٣.

٧) الطبابائي، **الميزان في تفسير القرآن**، م. س، ج٨، ص١٢٥.

٨) راجع: الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، م. س، اج٨، ص١٢٦ -١٢٨؛ وراجع: القرطبي، م. س، ج٧، ص٢١١-٢١٢؛ وراجع: الرازي، م. س، ج١٤، ص٨٧

- المستضعفون الذين لا مرجّح لدخولهم في إحدى الطائفتين الأخريين -أي أصحاب النار وأصحاب الجنّة-
- أولاد الكفّار والزنا.
- الذين لا علاقة لهم بالجنس الإنساني أصلًا؛ فهم إمّا من الملائكة وإمّا من الجنّ.

وإذا رجعنا إلى الكتب الروائية نجد أنّه قد ورد عن أهل البيت عليهم السلام أحاديث تحدّد المصداق الخارجي لمفهوم رجال الأعراف؛ حيث يمكن تقسيم الروايات التي تحدثت عن «**أصحاب الأعراف**» إلى ثلاث طوائف؛ الطائفة الأولى تتحدّث فيه الروايات عن «**رجال الأعراف**» بالمعنى الذي تقرّر في البحث القرآني، والطائفة الثانية تتحدّث فيه عن «**أصحاب الأعراف**» بمعنى المستضعفين، والطائفة الثالثة تجمع بين الطائفتين:

١- الطائفة الأولى:

أ. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**نحن على الأعراف، نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذي لا يعرف الله عز وجل إلّا بسبيل معرفتنا، ونحن الأعراف يعرفنا الله -عز وجل- يوم القيامة على الصراط، فلا يدخل الجنة إلا من عرفنا وعرفناه، ولا يدخل النار إلا من أنكرنا وأنكرناه**»[١].

ب. سأل سعد بن طريف الإمام أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية: ﴿**وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ**﴾، قال: «**يا سعد هم آل محمد عليهم السلام لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار الا من أنكرهم وأنكروه**»[٢].

ج. سُئل الإمام أبو جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿**وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ**﴾، فقال أبو جعفر عليه السلام: «**نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبب معرفتنا، ونحن الأعراف الذين لا يدخل الجنة إلا من عرفنا وعرفناه، ولا**

١) الكليني، محمد بن يعقوب: **الأصول من الكافي**، تعـ. علي أكبر الغفاري، ط ٥، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٣هـ. ش، ج ١، ص١٨٤.

٢) العياشي، محمد بن مسعود: **تفسير العياشي**، ط ١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١١هـ، ج ٢، ص٢٢.

يدخل الجنة إلا من أنكرنا وأنكرناه، وذلك بأنّ الله لو شاء أن يعرّف الناس نفسه لعرّفهم، ولكنه جعلنا سببه وسبيله وبابه الذي يؤتى منه»[1].

٢- الطائفة الثانية:

أ. عن زرارة: قال لي أبو جعفر عليه السلام: ما تقول في أصحاب الأعراف؟ فقلت: ما هم إلا مؤمنون أو كافرون؛ إن دخلوا الجنّة فهم مؤمنون، وإن دخلوا النار فهم كافرون، فقال عليه السلام: والله ما هم بمؤمنين ولا كافرين، ولو كانوا مؤمنين دخلوا الجنة كما دخلها المؤمنون، ولو كانوا كافرين لدخلوا النار كما دخلها الكافرون، ولكنّهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم الأعمال وإنّهم لكما قال الله -عزّ وجلّ-، فقلت: أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار؟ فقال عليه السلام: اتركهم حيث تركهم الله، قلت: أفترجئهم، قال عليه السلام: نعم أرجئهم كما أرجأهم الله، إن شاء أدخلهم الجنّة برحمته وإن شاء ساقهم إلى النار بذنوبهم ولم يظلمهم، فقلت: هل يدخل النار إلا كافر؟ قال: فقال: لا إلا أن يشاء الله، يا زرارة إنني أقول: ما شاء الله وأنت لا تقول ما شاء الله أما إن كبرت رجعت وتحلّلت (عنك) عقدك[2].

ب. وعن حمزة بن الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام: قلت: وما أصحاب الأعراف؟ قال: «**قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فإن أدخلهم النار فبذنوبهم، وان أدخلهم الجنّة فبرحمته**»[3].

٣- الطائفة الثالثة:

أ. روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**إذا كان يوم القيامة أقبل سبع قباب من نور يواقيت خضر وبيض، في كلّ قبة إمام دهره قد احتفّ به أهل دهره برّها وفاجرها حتى يقفوا بباب الجنة، فيطّلع أولها صاحب قبة اطلاعة فيميّز أهل ولايته وعدوّه، ثم يقبل على عدوّه، فيقول: ﴿أَهَؤُلاء الَّذينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، (يقوله)**

١) م. ن، ج٢، ص٢٣، حديث ٤٨
٢) الكليني، م. س، ج ٢، ص٤٠٣.
٣) م. ن، ج ٢ ص٣٨١.

لأصحابه إلى الجنّة وهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فإذا نظر أهل قبة الثانية إلى قلّة من يدخل الجنة وكثرة من يدخل النار خافوا أن لا يدخلوها، وذلك قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾»[1].

ب. وروي عنه عليه السلام -أيضاً- قوله: «**الأعراف كثبان بين الجنة والنار، والرجال الأئمّة -صلوات الله عليهم-، يقفون على الأعراف مع شيعتهم، وقد سيق المؤمنون إلى الجنة بلا حساب، فيقول الأئمّة لشيعتهم من أصحاب الذنوب انظروا إلى إخوانكم في الجنّة قد سيقوا (سبقوا) إليها بلا حساب، وهو قوله - تبارك وتعالى-: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، ثم يقال لهم: انظروا إلى أعدائكم في النار، وهو قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ في النار، فـ﴿قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، ثم يقولون لمن في النار من أعدائهم: أهؤلاء شيعتي وإخواني الذين كنتم أنتم تحلفون في الدنيا أن لا ينالهم الله برحمة، ثمَّ يقول الأئمّة لشيعتهم ﴿ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، ثمَّ نادى أصحاب النار أصحاب الجنّة أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله**»[2].

وبعد ذِكْر هذه الروايات يتّضح عدم المنافاة بين وجود الأئمّة والمستضعفين على الأعراف. ولا يخفى أنّ لكلّ منهما سبباً مختلفاً للوجود في تلك المرتبة المتوسطة بين الفريقين، فالأئمّة لمكانتهم ودورهم في ذلك الموقف، والمستضعفون لعدم وجود مرجّح يدخلهم في أحد الفريقين الآخرين -فريق أهل الجنّة وفريق أهل النار-.

والجدير بالذكر أنّ الروايات التي ذكرت وجود المستضعفين على الأعراف كان السؤال فيها عن «**أصحاب الأعراف**» وليس عن «**رجال الأعراف**»، بينما عندما كان السؤال في الروايات الأخرى عن آية ﴿**وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ**

١) العياشي، م. س، ج ٢، ص٢٢.

٢) القمي، علي بن إبراهيم: **تفسير القمي**، تعـ. السيد طيب الموسوي الجزائري، ط ٣، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم ، ١٤٠٤هـ، ج ١، ص ٢٣١

بِسِيمَاهُمْ﴾، كان الجواب يأتي بأنّهم آل محمد، أو الأئمّةعليهم السلام.

وعليه، يمكن القول إنّ مقتضى الجمع بين الطائفة الأولى من الروايات وبين الطائفة الثالثة هو القول بأنّ ثمّة تفصيلاً في المصداق الخارجيّ لأهل الأعراف؛ فأصحاب الأعراف هم المستضعفون، وأولاد الزنا والكفّار الذين لم يبلغوا الحلم، والذين استوت حسناتهم مع سيئاتهم، وأمّا رجال الأعراف فهم الأئمّةعليهم السلام الذين يشهدون على أعمال الخلائق يوم القيامة، والذين يملكون الشفاعة بإذن الله -تعالى-، والمطّلعون على أحوال العباد وسرائرهم.

خاتمة:

إنّ الاتّجاه الأقرب إلى الآيات القرآنيّة والأحاديث المرويّة عن أئمّة أهل البيتعليهم السلام في تفسير معنى الأعراف وحقيقة أهله، أنّ ثمّة صنفين من الخلق يوجدون في مكان يشرف على أهل الجنّة والنار يسمّى الأعراف؛ الصنف الأوّل هم من الذين خلطوا عملوا صالحاً وآخر سيئاً فتساوت ذنوبهم وحسناتهم ولم ترجّح إحداهما على الأخرى أو الذين ولدوا من أبوين كافرين ولم يبلغوا الحلم أو من الذين ولدوا من زنا، وغيرها من الأقوال. أمّا الصنف الثاني فهم شهداء الأعمال والشفعاء من الأنبياء والأوصياء الذين أذن الله لهم بأن يُدخِلُوا الجنّة أو النار مَنْ شاؤوا؛ بما عرفوه من أحوال الخلق وسرائرهم.

والنتيجة التي يمكن استخلاصها ممّا تقدّم، أنّ الأعراف ليست سوى موقف مؤقّت تعبره فئة من أهل المحشر، وتكون نهايته إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار. ولا دلالة في القرآن أو الروايات على أن الأعراف مقرٌّ ثالث لفئة من الناس بإزاء الجنّة والنار.

روي عن الإمام الصادقعليه السلام: «**فأمّا في يوم القيامة، فإنّا وأهلنا نجزي عن شيعتنا كلّ جزاء، ليكوننّ على الأعراف بين الجنّة والنّار محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام والطيّبون من آلهم، فنرى بعض شيعتنا في تلك العرصات ممّن كان منهم مقصّراً في بعض شدائدها، فنبعث عليهم خيار**

شيعتنا كسلمان، والمقداد، وأبي ذر، وعمّار، ونظرائهم في العصر الذي يليهم، وفي كلّ عصر، إلى يوم القيامة، فينقضون عليهم؛ كالبزاة والصقورة، ويتناولونهم كما تتناول البزاة والصقورة صيدها، فيزفّونهم إلى الجنّة زفّاً»[1].

١) المجلسي، محمد باقر: **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، تحـ. يحيى العابدي الزنجاني، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٨، ص٣٣٨.